الولاية

تمهيد

الولاية (بكسر الواو) من ولية وليا أى دنا منه دنوا ، وأوليته إياه بمعنى أدنيته منه ٠ ومنه والاه موالاة وإلى بين الشيئين إذا قارب بينهما.

والولى : فعيل بمعنى فاعل وهو من توالت طاعته دون أن يتخللها معصية وتجئ بمعنى مفعول ويكون معناها من تولاه الله بإحسانه وفضله[1] وسواء كانت بمعنى اسم الفاعل أو أسم المفعول فإنها تتضمن معنى القرب المستلزم للمحبة والمودة ويقال فلان يلى فلانا أى يقرب منه والولى القريب.

والقرآن الكريم قد استعمل لفظ الولاية مضافة إلى الله تعالى ومضافة إلى الإنسان واستعملها كذلك بمعنى اسم الفاعل وبمعنى اسم المفعول.

وأصل الولاية المحبة والقرب وضدها العداوة التى تستلزم البغض والبعد ، والولى هو من والى الله بالطاعات وبتنفيذ أوامره وترك نواهيه.

الذين امنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة و قال تعالى : يونس ٦٢ يجوز فيها والله أعلم أن تكون بمعنى اسم الفاعل وأن تكون بمعنى اسم المفعول فعلى الأول يكون معناها : أولياؤه هم الذين والوه بالطاعة وترك المعصية وعلى الثانى معناها من تولاهم الله بفضله وإحسانه وحفظه فلا خوف علهم ولا هم يحزنون.

وقال سبحانه : الله ولى الذين آمنوا البقرة ٢٥٧ أى متوليهم بهدايته وفضله البقرة ٢٥٧

(المائدة :٥١)

(المائدة :٥٥)

الأعراف:١٩٦

الكهف:٤٤

النساء:٧٦

النساء:١١٩

---

(1) راجع اللسان، أساس البلاغة، التعريفات: مادة أولى.

الأعراف: ٢٧

الأعراف:٣٠

الأنعام: ١٢١

فهذه الآيات وغيرها قد دلت على أن الولاية قد تكون لله وقد تكون للشيطان ولما كان معنى الولاية يتضمن المحبة والقرب فإن ولاية الله تعنى محبته والقرب منه والتقرب إليه بما شرع وولاية الشيطان ضدها ونقيضها فهى قرب من الشيطان ومحبة بإتباع أوامر جنوده وهو هوى النفس وإغراء الدنيا، وكلما اقترب المرء من الله بولايته ابتعد عن الشيطان بالإعراض عنه والعكس صحيح فكلما ازدادت ولاية المرء للشيطان زاد بعده عن الله ولا يجتمع فى قلب المؤمن ولاية لله مع ولايته للشيطان فى وقت واحد أبدا وإن كان ذلك ممكنا بالتوالى بينهما، فيتولى القلب ربه مرة ثم قد يتغلب عليه الشيطان فيتولاه مرة وهذا جائز وواقع أما أن يجتمع فى القلب الواحد ولاية لله وولاية لغيره فهذا ما لا يتسع القلب له لأنه لا يشغل بالشيء ونقيضه فى وقت واحد وإن جاز أن يشغل بأحدها كانشغاله أحيانا بالطاعة وأحيانا بالمعصية.

وإذا كانت الولاية الشرعية تابعة لتنفيذ الأوامر والنواهى الشرعية بمعنى أن يعبد الله بما شرع وبما أمر فينبغى أن يعلم أن أكثر المسلمين التزاما وطاعة وبالتالى أفضل المسلمين وأقربهم إلى الله هم جيل الصحابة، هذا فيما يخص الأمة الإسلامية وأفضل من والى بطاعته مطلقا من خلقه عامة هم الأنبياء وأفضل الأنبياء هم المرسلون، وأفضل المرسلين أولو العزم منهم وأفضل أول العزم خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ذلك أصل ينبغى أن يستقر فى قلب كل مؤمن وأن يعتقده اعتقادا حازما لا يلحقه ريب ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم وإمام جميع الأنبياء إذا اجتمعوا ولقد أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمن به ولينصرنه فأقروا بذلك وشهدوا به.

آل عمران: ٨١

وأفضلية محمد صلى الله عليه وسلم على سائر المرسلين وبالتالى على جميع الأولياء قاطبة من لدن آدم إلى قيام الساعة أمر لا ينبغى أن يكون محل ريبة عند كل مسلم وبالتالى فإن فضائل أمته على سائر الأمم كثيرة فإن

بعثته كانت فارقا فرق الله به بين أوليائه وأعدائه وجعل رأس ذلك هو الإيمان بمحمد وبما جاء به عن ربه..

قال تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله

فجعل محور محبة الله كامنة فى إتباع رسوله ظاهرا وباطنا فليست الولاية إذن ادعاء ولا ابتداعا وإنما هى سلوك وإتباع ومعلوم أن اليهود والنصارى قد ادعوا الولاية لله ومحبته فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه فرد عليهم القران فريتهم قائلا :

قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق

وقال مرة : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، فقال الله تعالى مخبرا أن : (تلك أمانيهم) الكاذبة (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

وجاء فى الصحيحين أن طائفة من أقارب الرسول ادعوا ولايته ومحبته فقال عمرو بن العاص: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا من غير سر: إن آل فلان ليسوا لى بأولياء إنما ولى الله وصالح المؤمنين لافتا النظر إلى أن الولاية لله وحده ء وإن وليه الله ثم الصالح المؤمن.

وثبت بالنصوص القاطعة أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها هو أبو بكر وعثمان وعلى ثم بقية الصحابة أهل البيعة والبدريين وغيرهم وليس ذلك الفضل لمجرد السبق الزمنى وإنما يضاف إليه صدق العمل وكثرته وامتلاء القلب باليقين وهذا أمر قد أشار إليه القرآن كثيرا.

وحاول بعض المتأخرين من الصوفية أن يتناول موقف أهل الصفة على غير وجهه الصحيح فادعى أنهم كانوا موحى إليهم فى الباطن بما علمه الرسول من ربه ليلة الإسراء والمعراج وقال البعض أنهم كانوا مستغنين عن الرسول فى الباطن وأنه لم يرسل إليهم، وهذا كله جهل وتضليل لعقول الناس فمن الثابت أن الإسراء كان من مكة وقبل الهجرة وأن الصفة كانت بالمدينة وأهلها أتوا إليها بعد الهجرة لا قبلها ، وما ينبغى أن يعرف أن أهل الصفة لم تكن لهم أفضلية يتميزون بها عن بقية الصحابة لا فى علم ولا فى دين وكان فيهم من ارتد عن الإسلام وقاتله الرسول كالعرين الذين اجتووا بالمدينة فأمر النبى لهم بألبان الإبل فشربوها حتى صحوا فلما أفاقوا قتلوا راعى الإبل التى شربوا ألبانها فأرسل النبى فى طلبهم فأتى بهم وأمر بقطع وأيديهم وأرجلهم وحديثهم

فى الصحيحين من حديث أنس فكان ينزل الصفة هؤلاء وأمثالهم كما كان يترلها أيضا من خيار الصحابة كسعد بن أبى وقاص وأبى هريرة والرسول صلى الله عليه وسلم كان وفادة أهل الصفة ويسميهم ضيوف الإسلام لكثرة محبتهم له وجهادهم من أجل دين الله ﷻ فكيف يقال عنهم أنهم كانوا يستغنون عنه فى الباطن أو يوحى إليهم أو غير ذلك مما لا يقره واقع حالهم وهم جميعا كانوا يقرون برسالته ظاهرا وباطنا ولا يحق لمسلم أن يتقول عليهم ما يناقض واقعهم.

والله تعالى قد وصف أولياؤه بصفتين أساسيتين فقال سبحانه عنهم: الذين آمنوا وكانوا يتقون؛ فالإيمان والتقوى أصل لولاية الله وبحسب إيمان المرء بالله وتقواه لله تكون درجته فى الولاية فمن كان أكمل إيمانا وأكثر تقوى كان أكمل فى ولايته وقربه من ربه.

ولما كانت الولاية مرتبطة بالإتباع والوقوف عند أوامر الله ونواهيه نجد القرآن الكريم قد قسم أولياء الله المنفذين لأوامره إلى طبقتين:

١ - فمنهم السابقون المقربون.

٢ - ومنهم أصحاب اليمن المقتصدون.

وقد ذكرالقرآن ذلك فى غير موضع .

ففى سوره الواقعة قال تعالى : أما إن كان من المقربين.....إلى اليمين

وفى سورة المطففين: ١٨ -٢٨

وعن ابن عباس فى هذه الآية : إن أصحاب اليمين يمزج لهم الشراب مزجا أما المقربون فيشربون بها صرفا غير ممزوجة[٢] وهذا نظير ما جاء فى سورة الإنسان فى قوله سبحانه: إن الأبرار يشربون ....إلى عباد الله

وقد بين الحديث الشريف كلا النوعين وميز بينهما فى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الأولياء الذى جاء فيه، يقول الله تعالى قال: " من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها

---

(٢) من مجموع الفتاوى لابن تيمية، التصوف: ١٧٨/١١.

ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن نفسي عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءلته ولابد من ذلك "فالحديث قد بين أن الأبرار هم المتقربون إلى الله بأداء الفرائض فيفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله ء ولا يكلفون أنفسهم بفعل المندوبات و لم يكفوا أنفسهم عن فعل الفضول من المباحات فهؤلاء هم أصحاب اليمين.

أما السابقون المقربون فهم الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد أداء الفرائض ففعلوا الواجبات والمسنونات والمندوبات ونزهوا أنفسهم عن فعل المكروهات بعد عزوفهم عن فعل المحرمات فلماذا تقربوا إلى الله تعالى بأداء النوافل أحبهم الله حبا تاما كما جاء في الحديث السابق: ''لا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه'' والحب هنا مطلق عن كل قيد لأن هؤلاء المقربين قد أتوا بالنوافل قدر استطاعتهم وصارت المباحات فى حقهم طاعة مقصودا بها التقرب إل الله من ترك المكروه وفعل المندوب فصارت أعمالهم كلها عبادة لله ولهذا كان شرابهم صرفا غير ممزوج كما هو شأن الأبرار وأصحاب اليمين ذلك لأن أعمالهم بل جميع حياتهم كانت لله خالصة غير ممزوجة بحب غيره ولا بموالاة غيره أما الذين مزجوا فى عملهم بين ما يحبه الله وما تحبه أنفسهم شرابهم ممزوجا من شراب المقربين بقدر ما مزجوا أعمالهم فى الدنيا بالولاء والمحبة لغير الله.

وجاء مثل ذلك فى سورة فاطر، حيث ذكر أولياءه المقتصدين والسابقين المقربين فى قوله سبحانه ثم أورثنا ...إلى بإذن الله؛

فالظالم لنفسه هم أصحاب الذنوب المصرون عليها والمقتصد هو المؤدى للفرائض الممتنع عن المحارم والسابق بالخيرات هو المؤدى للفرائض المتقرب بالنوافل والتفاضل الكائن بين أصحاب اليمين والمقربين إنما كان بسبب كثرة الأعمال ودوام التقرب بها إلى الله.

ولما كان الإيمان والتقوى أصل الولاية فإن الذى لا يصح منه إيمان ولا تقوى لا يصح اعتباره وليا لله حتى وإن كان غير معذب ولا آثمين وذ مثل لأطفال والمجانين ومن لم تبلغه الدعوة وكذلك المجانين والأطفال لا يتصور منهم ولاية حيث لم يتقرب أحدهم إلى الله بفعل الواجبات وترك المحرمات فالمجنون لا تصح عبادته باتفاق العلماء لأن شرط صحة العبادة النية وهو لا نية

لـه وبالتـالى فـلا تتصـور ولايتـه لا عقـلا ولا شـرعا ولمـا كانـت هـذه أصـولا عامـه للولايـة فمـن أدعـى الولايـة وهـو لا يـؤدى مـا فرضـه اللّه عليـه ولا يجتنـب محـارم اللّه أو يـدعى أنـه سـقط عنـه الأمـر الشـرعى بالتكـاليف أو يـدعى أن الأمـر الشـرعى إنمـا جـاء للعامـة ولـيس للخاصـة و أتـى بمـا ينـاقض شـرع اللّه لم يكـن لأحـد أن يقـول عنـه أنـه ولى اللّه بـل إن هـذا وأمثالـه إن كـان يعتقـد فـى باطنـه خـلاف مـا جـاء بـه الرسـول أولا يعتقـد صـحة مـا جـاء بـه الرسـول فهـذا لم يكـن معـه مـن الإيمان شىء فضلا عن ولايته للّه ولرسوله.

ولـيس لأوليـاء اللّه شـىء يتميـزون بـه عـن النـاس إلا سـلوكهم ونمـط علاقـتهم بـاللّه وبالنـاس فليس لهـم لبـاس معـين بـل كمـا يقولـون: كـم مـن صـديق فـى قبـاء وكـم مـن زنـديق فـى عبـاء ومـن هنـا فـإن أوليـاء اللّه يوجـدون فـى جميـع أصـناف الأمـة مـا لم يكونـوا مـن أهـل البـدع والفجـور فيوجـدون فـى أهـل القـرآن وأهـل العلـم كمـا نجـدهم بـين صـفوف المجاهـدين بالسـيف المـدافعين عـن بيضـة الإسـلام ويوجـدون بـين الـزراع والتجـار والصـناع فليسـت الولايـة إذن قاصـرة علـى شـخص أو علـى فرقـة بعينهـا وإنمـا قـد توجـد فـى أى شـخص إذا أخـذ سـبيله فـى التقـرب إلى اللّه بمـا يحـب وكـان القلـب مسـتعدا لـذلك ومـا النـاس إلا رجـلان فمـؤمن تقـى حبيب إلى ربه وفاجر شقى بعيد عن رضوان اللّه.

ولـيس مـن وسـائل التقـرب إلى اللّه المشـروعة الامتنـاع عـن طعـام بعينـه أو لبـاس بعينـه أو شـراب بعينـه إلا إذا كـان ذلـك ممـا نهـى اللّه عنـه أو حـذر منـه رسـوله كـذلك لـيس مـن وسـائل التقـرب المشـروعة اعتـزال النـاس وهجـر البيـت والأولاد أو ملازمـة الصـمت الـدائم إلا عنـد الكـلام بمـا لـيس خـيرا وقـد ثبـت فـى صـحيح البخـارى عـن ابـى عبـاس أن رسـول اللّه صـلى اللّه عيـه وسـلم رأى رجـلا قائمـا فـى الشـمس فقـال: مـا هـذا..؟ فقـالوا: أبـو إسـرائيل نـذر أن يقـوم فـى الشـمس ولا يسـتظل أبـدا ولا يـتكلم ولا يصـوم فقـال النبـى صـلى اللّه عليـه وسـلم: مـروه فليجلس وليسـتظل وليـتكلم وليـتم صـومه ومـن سـلك إلى اللّه طريقـا غـير مـا سـنه رسـوله ظانـا أو معتقـدا أن غيرهـا منهـا أو أحـب إلى اللّه ممـا سـنه رسـوله كـان جاحدا بها ملحدا فى آيات اللّه.

وليسـت العصـمة شـرطا فـى الولايـة ولـيس مـن شـرط الـولى أن يكـون معصـوما لا يخطـئ بـل يجـوز عليـه الخطـأ مثـل بقيـة البشـر، ويجـوز أن يخفـى عليـه مـن أمـور

الشريعة ما يخفى على غيره إن كان عالما مجتهدا ويجوز آن يشتبه عليه من أمور الدين ما يشتبه على غيره إذ لا عصمة له ولم يقل بعصمته أحد من علماء الأمة بل لم تثبت العصمة لأحد غير رسل الله المبلغين عنه ولم يخرج الولى بخطئه عن كونه مجتهدا قد أخطأ وحصل له ما نص عليه الرسول فى قوله إذا اجتهد أحدكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد وذلك الخطأ لا يقدح فى ولايته ولا ينقص من شأنها .

ولما كان الولى شأنه كشأن سائر المسلمين يجوز عليه الخطأ والنسيان والغفلة يجب على الناس الإيمان لكل ما يقوله ولا تصديقه فى كل ما يخبر عنه وإنما تعرض أقواله وأفعاله على الكتب والسنة إذا كانت تتعلق بأمور الدين فما وافق منها قبله الناس منه وما خالف ردوه عليه ويكون ذلك من خطئه الذى لا يجب تصديقه وإن كانت أقواله وأفعاله مما تتعلق بأمور الدنيا فتعرض على أرباب العقول وأهل الاختصاص فيقبل منها ما قبلوه ويرد منها ما ردوه أما أن تكون أقواله بمثابة قول المعصوم فتقبل منه لمجرد ولايته فهذا لم يقل به أحد بل لا يجوز للولى نفسه أن يعتمد على كل ما يلقى إليه فى قلبه كالإلهام والمحادثة والرؤيا إلا إذا كان كل ذلك موافقا للشرع ظاهرا وباطنا فإذا جاء منها ما خالف الشرع لم يقبل وإن لم يعلم هو هل موافق أم مخالف يتوقف فيه والاعتماد المطلق على الإلهام و الرؤيا أو الكشف دون عرض على الكتاب والسنة لا يجوز لمسلم أن يقع فى ذلك حيث لا عصمة له ولا أمان من الخطأ .

والناس فى مثل هذا الموقف طرفان ووسط؛ فمن الناس من يحسن الظن فى شخص ما ويعتقد ولايته لله ويقبل عنه كل ما يقوله أنه حدثه به ربه فى قلبه أو إلهامه وكشفه وسلم له جميع ما يفعله دون اعتبار لموافقته أو مخالفته لما جاء به الرسول ومن الناس من يخرج الولى عن ولايته بالكلية لمجرد قوله أو فعله المخالف وإن كان قد اجتهد فأخطأ وكلا الطرفين قد خرج فى موقفه عن حد الاعتدال والتوسط وخير الأمور وسطها فلا نعتقد عصمة الولى عن الخطأ حتى لا نسلم له كل ما يقول ولا نخرجه عن ولايته بالكلية أو نقول بإثمه إذا كان مجتهدا فأخطأ ، فلا نتبع كل أقواله ولا نحكم بفسقه أو عدم ولايته مع اجتهاده.

وكان عمر بن الخطاب من خيار المحدثين فى هذه الأمة ولم ينقل أحد عنه القول بعصمته أو متابعته فى كل أقواله على سبيل الوجوب فقد ثبت فى الصحيحين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى حق عمر: ''فد كان فى الأمم قبلكم محدثون (بفتح الدال المشددة) فإن يكن فى أمتى أحد فعمر منهم"

وروى مال ذلك أبو داود ، وكان على بن أبى طالب يقول: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر، وكان هذا أمرا معروفا بين جيل الصحابة أ ، عمر من المحدثين الملهمين بالحق حتى أن قيس بن طارق كان يقول: كنا نتحدث من عمر كأنما ينطق على لسانه ملك وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين وأسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة[٣] وما كان يحدث به عمر وما يخبر من أمور تتجلى للمطيعين هى تلك الأمور التى يكشف الله عنها لأوليائه، لأنه لا شك أن للأولياء مكاشفات ومخاطبات وميزان قبولها أو رفضها الموافقة للكتاب والسنة ومن أفضل الذين كوشفوا فى ذلك عمر إن لم يكن أفضلهم بعد أبى بكر لم يقل أحد بوجوب متابعته أو عصمته، ومع سبق عمر وأفضليته فى ذلك كان ما يحدث به منه ما يقبل ومنه ما يرد عليه فلقد نزل القرآن بموافقته غيره كما فى شأن أسارى بدر وغيرها ، أما إذ إذا حدث بشىء يخالف ما جاء به الرسول أو رآه فكان عمر نفسه أسرع الناس رجوعا عن رأيه وقد حدث فى عام الحديبية أن الرسول صالح المشركين على أن يعودوا إلى المدينة فى سنة ست من الهجرة مع شروط رآها عمر وبعض المسلمين مجحفة بالمسلمين فرأى عمر ضرورة القتال وكره العودة إلى المدينة مع هذه الشروط، وقال للرسول ألست نبي الله حقا؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري ثم رجع عمر عن قوله وقال : فعملت بذلك أعمالا وكذلك موقفه لما مات الرسول وأنكر عمر ذلك فقال له أبو بكر: إنه لقد مات رجع عمر عن ذلك وأيضا فى قتال ما نعى الزكاة نزل عمر عن رأيه موافقة لأبى بكر وغير ذلك كثير كان قد أصاب فيه عمر ومما

---

(٣) من مجموع الفتاوى لابن تيمية، التصوف: ١١/٢٠٤-٢٠٥.

أخطأ فيه أو رجع عن رأيه مع أنه جاء فى حقه كثير من الأحاديث الصحيحة التى تفيد أنه محدث هذه الأمة، وإن يكن فيها محدثون بعده فهو أفضلهم ومع ذلك لم يدع لنفسه العصمة عن الخطأ وإنما كان ميزانه الصحيح موافقته ما جاء به الرسول وكان يشاور الصحابة قبل الخلافة وبعد أن أصبح خليفة ، ويناظرهم ويرجع إليهم وينزل على رأيهم ولم يقل لهم أنه محدث فيجب عليهم إتباعه وموافقته، بل كان الصحابة ينازعونه فى أشياء ويحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة فيقرهم أحيانا ويقرونه أحيانا و من هنا نستطيع القول أن كل من ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولى مخاطب فيجب إتباعه فى كل أقواله دون اعتبار لموافقة الكتاب والسنة فهو وهم مخطئون جميعا واتفق كبار الصوفية على ذلك كما اتفق سلف الأمة على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا من الفروق الأساسية بين الأنبياء وغيرهم وهذا أيضا محل اتفاق بين جميع أولياء الله المتبعين لرسوله الملتزمين فى سلوكهم بالكتاب والسنة.

قال أبو سفيان الدارانى: إنه ليقع فى قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهد من الكتاب والسنة.

وقال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب وألسنة فمن لم يقرأ القرآن وكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم فى علمنا، أو لا يقتدى به.

وقال أبو عثمان النيسابورى: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة.

وقال ابن نجيد: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وبمثل هذا قال التسترى وغيره من أئمة الصوفية الكبار فهم مجمعون على وجوب المتابعة والاقتداء وحذروا من البدعة والمخالفة للسنة فالأولياء والولاية تعتبر بصفات الولى فى أفعاله وأحواله ومدى مطابقتها للسنة ولو أتى شخص بخوارق العادات وعجائب الأمور دون موافقة أحواله وأفعاله لما جاء به الرسول لما عد ذلك وليا وليس له من الولاية الله نصيب.

وقد اتفق العلماء على أن الأنبياء أفضل من الأولياء وهذا محل إجماع العلماء وسلف الأمة وقد رتب الله درجات خلقه السعداء على أربع مراتب فقال سبحانه :٩ ومن لم يطع الله والرسول أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من

النبيين.....رفيقا) وفى الحديث: ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبى بكر وعمر وأفضل هذه الأمة الصحابة ثم التابعين لما جاء فى الحديث: خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم وفى حديث آخر: لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه.

وأفضل أولياء بعد جيل الصحابة هو أكثرهم تقربا إلى الله بما يجبه الله وبما أمر به على لسان رسوله وأساس المفاضلة بين ولى وولى هو الالتزام والمتابعة والتقرب بما أمر وليس دون ذلك شىء آخر.

هذه أمور أراها ضرورية لكى يستقر العلم بها فى أذهاننا ويثبت يقينها فى قلوبنا، لكى نجعل منها ميزانا صحيحا نزن به أقوال الناس وأفعالهم ونقيس به أحوالهم لنعلم الفرق بين الولى والدعى.

الولاية عند الصوفية

تأخذ الولاية عند الصوفية معنى خاصا اصطلاحيا تتميز به عن المعنى العام المشار إليه فيما سبق ولا نجد فيما بين أيدينا من مراجع صوفية حديثا عن الولاية قبل الحكيم الترمذى فى كتابه ختم الأولياء[٤] وهو أول من تكلم عن الولاية وعن ختم الأولياء وصاغ من الحديث عنها نظرية متكاملة كان لها أثرها الكبير فى كل من تحدث عنها بعده من الصوفية إلى أن وصلت هذه الفكرة إلى ابن عربى فجعل منها مذهبا خاصا فى التصوف صاغه فى ثوب رمزى من المصطلحات التى ينفرد بها ابن عربى فى الفصوص والفتوحات على ضوء مذهبه فى وحدة الوجود وابتداء من الحكيم الترمذى نجد لفظ الولاية والولى يأخذ معنى رمزيا يبتعد به عن المعنى العام له وإن كانت بينهما علاقة لزومية غير أن الصوفية فى حديثهم عن الولاية يهملون المعنى الواضح والقريب للفظ ويركزون حديثهم على المعنى اللازم لها مع أنه قد يكون بعيدا فى معظم الأحيان عن ذهن القارئ.

وأول تعريف للولى نجده عند الحكيم الترمذى فى ختم الأولياء[٥] يشير فيه

---

(٤) طبع أخيرا بتحقيق د/عثمان يحى،ط بيروت – معهد الآداب الشرقية.

(٥) ص ٣٣١.

إلى أن ولى الله رجل ثبت فى مرتبته وافيا بالشروط كما وفى بالصدق فى سره، وبالصبر فى عمل الطاعة واضطراره؛ فأدى الفرائض وحفظ الحدود ولزم المرتبة ويبنئ هذا التعريف عن الأوصاف المعتبرة فى كون الولى وليا وعن المقام الذى تبوأه وثبت فيه أقدامه ومن الأمور الضرورية فى الولاية صدق السيرة أو الصبر على عمل الطاعة بأداء الفرائض والتقرب بالنوافل وحفظ الحدود واتقاء المحارم والولى الصوفى هو العارف والمحب والولاية امتداد طبيعى للمعرفة والمحبة ولذلك نجد كثيرا من كلام الصوفية عن المعرفة والعارف تنطبق فى كثير من معانيها على الولى والولاية فكأن الولاية نهاية الطريق للعارف ولا تتم الولاية للعارف إلا إذا لزم مرتبته وثبت فيها حتى قوم وهذب ونقى وأدب وطهر وطيب ووسع وزكى وشجع وعود وحين تكتمل هذه الخصال تكون قد تمت له الولاية فينتقل من مرتبته التى لازمها من قبل إلى مرتبة أرقى فى حضرة مالك الملك فيناجيه كفاحا ويشتغل به عمن سواه ويصير فى قبضته فيه يسمع وبه يبصر وبه بيطتن كما جاء فى حديث الولاية وهذا الولى قد تولى أمر الله بالصدق، فعلا وتركا، فعلا للمأمور وتركا للمحظور وثبت على ذلك حتى تولى الله عنه شئون أمره وصار سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها.

وولاية العبد لله بتنفيذ أوامره هى فى أصلها رحمة مهداة من الله للعبد تتمثل فى هدايته بنور النبوة حينا وبنور العقل والفطرة حينا آخر أما ولاية الله للعبد شئونه فهى الأخرى جود وعطاء من الله فالولاية الأولى خرجت من الرحمة والثا خرجت من الجود الإلهى[٦]

أنواع الولاية عند الترمذى:

ويصنف الترمذى الولاية والأولياء صنفين:

١ - ولى حق الله وولى الله؛ فأما ولى حق الله فهو الذى اكتفى بحراسة جوارحه عن انتهاك محارم الله وجمع فى هذه الحراسة همته وفكره حتى طهر نفسه من الرذائل واتجه إلى الطاعة فأدى الفرائض وحفظ الحدود.

أما ولى الله فهو الذى تولى الله عنه حراسة جوارحه ليعيشوا فى فسحة

---

(٦) ص ١٣٥-١٤٣.

التوحيد متحررا من رق النفس ملازمين لمراتبهم التى حلوا فيها فإذا انصرفوا عنها إلى عمل الجوارح كانوا فى حراسة من الله[٧].

وليس لقلوب الأولياء منتهى فى ولايتها ولا فى محبتها له لأن عظمة الله وجلاله لا نهاية لهما فليس لميسرة القلوب إليه إذن نهاية "... ومن أين يبلغ أحد عظمة الله حتى يكون للقلوب منتهى" والله تعال قد جعل لقلوب أوليائه مقامات فرب ولى مقامه فى أول ملك من ملائكة أسمائه وصفاته ويكون نصيب الولى ذلك الاسم الموكل بحراسة ذلك الملك ورب ولى مقامه التخطى إلى ملك ثان وثالث.. حتى يصل إلى ملك الوحدانية والفردانية والولى الذى يصل إلى هذا الملك يكون قد أخذ بجميع حظوظه من الأسماء الإلهية وهو أسعد حظا من جميع الأولياء لقربه من ربه وهو بذلك يكون سيد الأولياء ويكون الخاتم لهم وله ختم الولاية من ربه لأنه قد بلغ المنتهى من أسمائه فإلى أين يذهب فى الترقى.

وحظوظ الأولياء مرتبطة بمراتبهم فى معرفة أسمائه وصفاته وحظوظ العوام منها بمجرد إيمانهم وثبات يقينهم عليها وحظوظ المقربين هو شرح الصدر لها حتى تستنير بها قلوبهم أو ينعكس نور هذه الصفات الإلهية على مرآة قلوبهم كل على قدر وقدر نور قلبه، كما قال تعالى : أنزل من السماء ماء فسالت أودية بعل بقدرها أما المحدثون وهم خاصة الأولياء فإن حظهم منها ملاحظة تلك الصفات ذكرا وفكرا حتى تشرق على قلوبهم وفى صدورهم فيظهر على القلب آثاار صفاته حتى إذا انتهت آثارها على ظاهر القلب انعكست إلى الباطن الذى لا يرى أحد مستقره وكلما عرف الولى أنه ليس وراء صفاته صفات ولم يجد فى القلب محلا لغيرها علم أنه لا يتقدمه أحد فى ولايته فيكون هو سيد الأولياء وخاتمهم.

ويستند الحكيم الترمذى فى نظريته فى الولاية إلى أثر ذكره فى ختم الأولياء ونقله عنه الصوفية من بعده فيذكر أن الله تعالى لما قبض نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم صير فى أمته أربعين صديقا بهم تقوم الأرض وهم من أهل بيته فإذا مات واحد منهم خلفه غيره ليقوم مقامه حتى إذا حان وقت زوال الدنيا

---

(٧) ص ٣٣٢-٣٣٣.

وانتهى عدد الأربعين صديقا ابتعث الله وليا اصطفاه واجتباه وقربه وأدناه وأعطاه ما أعطى سائر الأولياء وخصه بخاتم الولاية ليكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء وله مقام صدق الولاية كما أن له مقام خاتم الأولياء مقامه بين يدى الله ونجواه فى المجلس الأعظم والأولياء خلفه درجة درجة كل حسب مقامه ومنازل الأنبياء بين يديه وهؤلاء الأربعون صديقا فى كل زمان هم أهل بيت النبى وليس المقصود أهل البيت هنا أهل البيت من النسب كالأبناء والأحفاد، وإنما هم أهل بيت النبى ذكرا وفكرا وعملا ومجاهدة.

والرسول قد بعث لإقامة ذكر الله في أهل بيته هم أهل الذكر الخالص الصافى وكل من آوى إل مجالس الذكر هم من أهل بيته ويفسر الترمذى فى ضوء ذلك المعنى ما روى عن الرسول: أهل بيتى أمان لأمتى فإذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون وإنما كان هؤلاء الأربعون صديقا أمانا لأهل الأرض لأن بهم تقوم الأرض وبهم يستسقون الغيث وتفسير الترمذى للأثر النبوى السابق على هذا المعنى يبعد عن التفسير الشيعى لأنهم متمسكون بأن المراد هم أهل البيت نسبا ومصاهرة ويحتج الترمذى فى تفسيره هذا بأن النبى صلى الله عليه وسلم لو لو أراد بأهل بيته أنسابه وأقربائه لكان محالا ألا تخلو الأرض منهم فيموتون عن آخرهم وهو يرى أن الله كثر أهل بيته نسبا فلا يحصون عددا[٨] .

ببن النبوة والولاية:

يذهب الحكيم الترمذى فى مقارنته بين مقام النبوة والولاية إلى أمور غريبة حقا لا نجدها عند أحد قبله وإن كنا نلتقى بأفكاره فى تراث كثير من الصوفية من بعده وخاصة ابن عربى ويشرح الترمذى لتلميذه مكان الولى بين الأنبياء بادئا بمقام محمد صلى الله عليه وسلم فالله تعالى قد اختار من خلقه رسله وأنبياءه كما اختار منهم أولياءه ولقد فضل بعض النبيين على بعض، فمنهم من فضله بالخلة كإبراهيم خليل الله ومنهم من فضله بالكلام وكلم الله موسى تكليما ومنهم من أثنى عليه بالزبور كداود ومنهم من خصه بإحياء الموتى كعيسى عليهم الصلاة والسلام وهناك من خصه بالعصمة وحياة

---

(٨) المرجع السابق: ٣٣٥-٣٣٣.

القلب الدائمة حتى لا يخطئ ولا يهم بخطيئة وهو محمد عليه السلام.

وكما جعل الله الأنبياء منازل ودرجات كذلك فضل بعض الأولياء على بعض ويبدأ الترمذى ليقارن بين خاتم الأنبياء وخاتم الأولياء منذ كان كل منهما مستقرا فى علم الله أزلا وقبل خلق العالم إلى أن أصبح كل منهما وجودا فعليا له وظيفة دينية واجتماعية منوطة به.

١ - ففى البدء كان الله ولا شىء معه فجرى الذكر وظهر العالم وجرت المشيئة وأول ما جرى به الذكر ذكر محمد صلى الله عليه وسلم ثم ظهر فى العلم علمه ثم فى المشيئة مشيئة ثم فى المقادير هو الأول ثم فى اللوح هو الأول ثم فى الميثاق هو الأول وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو الأول فى الشفاعة وهو الأول فى دخول الجنة وهو الأول فى الزيارة فبهذا ساد الأنبياء جميعا وهو خاتم الأنبياء وشفيع لهم وبيده لواء الحمد وليس معنى كونه خاتم الأنبياء أنه آخر الأنبياء مبعثا ورسالة ولكنه يعنى أن رسالته مختومة بخاتم الصدق وهو صدق العبودية له ولما كان من حكمة الله ألا يدع باطنا من الأمر إلا ويدل عليه ظاهر منه كان بين كتفى النبى ذلك الختم ظاهرا كبيضة الحمامة والجاهل الأعمى هو الذى يظن أن خاتم النبيين معناه آخرهم مبعثا وأى منقبة فى هذا وأى علم بل هذا يدل على جهل صاحبه وعمى بصيرته فى التفسير ولما أحس الترمذى بغرابة تفسيره لمعنى الخاتم أخذ يتلمس له ما يقربه إلى الأذهان من الحياة العملية فإن من شأن الناس ألا يشكوا فى صدق الشىء المختار المختوم بخاتم يميزه عن نظيره الغث أو الأقل درجة منه فيقال عنه إن هذا الشىء مختوم ومسجل عليه ما يدل على نفاسته بخلاف غير المختوم فكأن الله تعالى قد جمع لمحمد جزاء النبوة وتممها له وختم عليها بختمه إشارة إلى الكمال والتمام ، ويقرأ الترمذى الآية: ولكن رسول الله وخاتم النبيين بكسر التاء لا بفتحها مشيرا بذلك إلى تفسيره لمعنى الخاتم ويؤكده بحديث الإسراء حين اجتماع الأنبياء فى المسجد الأقصى وكان إمامهم فى الصلاة محمدا وذكر كل نبى مكرمة الله عليه فذكر محمد أنه الخاتم والفاتح فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد.

أما الولى الخاتم : فإن الله تعالى ابتعثه واصطفاه واجتباه وقربه وأدناه وأعطاه ما أعطى الأولياء جميعا وجعله خاتما لهم ليكون حجة الله على سائر

الأوليـاء ويوجـد عنـده صـدق الولايـة كمـا كـان لمحمـد صـدق النبـوة لأن كـلا منهمـا جمـع لـه مـا لسـائر جنسـه، فمحمـد جمـع اللّه لـه مـا لسـائر الأنبيـاء وكـذلك الـولى الخـاتم جمـع لـه مـا لسـائر الأوليـاء فـإذا بـرز الأوليـاء يـوم القيامـة واقتضـوا صـدق العبوديـة وجـدوا الوفـاء عنـد هـذا الـولى الخـاتم فهـو سـيدهم وشـفيعهم كمـا أن محمـدا سـيد الأنبيـاء وشـفيعهم ولم يـزل هـذا الـولى مـذكورا فـى البـدء كمـا كـان محمـدا صـلى اللّه عليـه وسـلم فهـو أول فـى الـذكر وفـى العلـم وفـى المشـيئة وفـى المقـادير وفـى اللـوح والميثـاق وفـى المحشـر والخطـاب والشـفاعة فهـو فـى كـل مكـان أول كمـا كـان محمـد صـلى اللّه عليـه وسـلم أول الأنبيـاء وهـو مـن محمـد عنـد الأذن والأوليـاء عنـد القفـا ولا يـتردد الترمـذى بعـد هـذه المقارنـة أن يجعـل... منـازل الأنبيـاء بـين يديـه والفـارق بـين النبـى والـولى عنـده أن النبـى يحـدث بكـلام مـن اللّه ظـاهرا ينـزل بـه الـوحى فيلـزم تصـديقه ومـن رده فقـد كفـر أمـا الـولى فـإن اللّه تعـالى يتـولى تحديثـه بلسـان الحـق ومعـه السـكينة فيتلقـاه القلـب ويسـكن إليـه ويقـع هـذا الحـديث الإلهـى نتيجـة محبـة اللّه للعبـد ومـن رد حـديث المحـدث أو الـولى لم يكفـر ولكنـه يخيـب ويبهـت قلبـه والمحـدثون لهـم منـازل فمـنهم مـن أعطـى مـن النبـوة ثلثهـا، ومـنهم مـن أعطـى نصـفها ومـنهم مـن لـه الزيـادة حتـى يكـون أوفـرهم حظـا فـى ذلـك مـن لـه خـتم الولايـة وكمـا أن النبـوة مـن اللّه فكـذلك حـديث المحـدث مـن اللّه والنبـوة محروسـة بـالوحى والـروح والحـديث محـروس بـالحق والسـكينة والنبـوة يـأتى بهـا الـوحى والـروح قرينـه والحـديث يـأتى بـه الحـق والسـكينة قرينـة والسـكينة هـى مقدمـة الخـبرة وليس معنـى السـكينة هنـا عـدم الخـوف والاضـطراب وإنمـا معناهـا عـدم الشـك أو الريـب فيمـا يحـدث بـه ومـن هنـا كانـت السـكينة حارسـا علـى مـا يـورده الـوحى علـى قلـب النبـى وعلـى مـا يـورده الحق على قلب الولى وهى من اللّه.

واللّه تعـالى قـد أخـذ الميثـاق علـى كـل مـن الرسـول والنبـى والـولى، لأن كـلا مـنهم داع إلى اللّه مؤيـد بـه غـير أن حـديث المحـدث لـه تأييـد وزيـادة بينـة فـى شـريعة الرسـول ومـن رد عليـه حديثـه لم يكفـر بخـلاف مـن رد علـى النبـى أو الرسـول حـديثهما فإنـه كـافر بمـا جـاء بـه ووسـائل التأييـد الإلهـى أو العـون الربـانى للـولى والمحـدث هـى الحـديث والفراسـة والإلهـام والصـديقية أمـا النبـى فيتميـز بـذلك كلـه ويضـاف إليهـا التنبـؤ والرسـول يتمتـع بمـا للنبـى والمحـدث ويتفـرد بالرسـالة أمـا بقيـة

الأولياء غير المحدثين فمن حظهم الإلهام والفراسة والصديقية ونفهم من هذا الترتيب أن الترمذى يجعل الرسول فى قمة الدرجات، ثم يليه النبى ثم الولى المحدث ثم بقية الأولياء وهذا الترتيب له أهمية كبرى فى مجال التمييز والمقارنة بين الترمذى ومن يفضل الولى على النبى من بقية الصوفية ولا يخلو الولى من علاقة ظاهرة ترشد الناس إلى ولايته وإن لم يتكلم هو بها ومن أهم هذه العلامات الظاهرة:

١ - أن الناس حين يرون الولى و يسمعون ذكره يسارعون بذكر الله فما أن يراه أحد إلا ويقول الله ولقد سئل النى صلى الله عليه وسلم: من هو الولى؟. فقال عليه السلام: من إذا رآه الناس ذكروا الله وفى الحديث المروى عن موسى أيضا أنه سأل ربه قائلا: من أو لياؤك يا رب؟ فقيل له: من إذا ذكروا ذكرت.

٢ - أن الغلبة والنصر حليفان له فى كل أموره مع أنصاره وأعدائه ذلك أن الولى مؤيد بسلطان الحق لما هو عليه من التزام بالحق فلا يقاومه أحد إلا قهره بسلطان حقه.

٣ - ومن علاماتهم الظاهرة ما يلاحظه الناس عليهم من الفراسة والحكمة والأقوال الملهمة بالتحديث عن الحق كأنهم به يتكلمون وعن مراد الله يتحدثون ومن شمائلهم الخاصة المقصد والهدى والحياء، واستعمال الحق فيما دق وعظم وسخاوة النفس واحتمال الأذى مع الرحمة والنصيحة وسلامة الصدر وحسن الخلق مع الله فى تدبيره ومع الخلق فى أخلاقهم والحكمة هى العلامة البارزة والمميزة للولى ويصف الترمذى هذه الحكمة بأنها الحكمة العلياء ويصفها أحيانا بالعلم الباطن وأحيانا بعلم الأنبياء والأولياء وهى إرث للولى عن النبى، وباطن القرآن ونور الإيمان.

٤ - اتفاق الألسنة بالثناء عليهم وجعلهم أمثلة ونماذج للاقتداء بهم فى عصرهم لأنهم لا حاجة لهم فيما فى أيدى الناس ومن هنا فى غنى عن الناس وأغناهم الله به عمن سواه فكانت حاجة الناس إليهم فى التذكير بآلاء الله ونعمه جزءا من حاجتهم إلى نور النبوة لأنهم من ورثة الأنبياء وقد يكون الواحد

منهم محل ابتلاء بالحسد فيحسده الناس على ما آتاهم الله من فضله كما فعل اليهود مع أنبياء الله من قبل.

٥ - إجابة دعائهم من الله وظهور الآيات البينات على أيديهم تكريما من الله لهم وكما أيد الله رسله بالمعجزات فقد كرم أولياءه بخوارق العادات تكريما وتأييدا وبرهانا على صحة دينهم وسلامة أخذهم عن نبيهم وقربهم من ربهم.

تلك علاماتهم الظاهرة وأهم ما يشير إليه الترمذى من ذلك أنهم دائما ينطقون بالعلم وأصول الحكمة التى تشمل عنده علم البدء وعلم الميقات وعلم المقادير وعلم الحروف وهذه الأشياء إنما يظهر العلم بها على لسان كبراء الأولياء ثم يأخذه عنهم من له حظ من الولاية وهذه هى الحكمة العليا عند الترمذى.

ولا يرى الترمذى ضرورة فى أن يستر الولى شأن نفسه عن الناس أو التظاهر بما يضاد حقيقة حاله لأن ذلك فى رأيه حال الضعفاء فإن الولى الذى يطلب غموضا فى الناس ويخفى كأنه إنما يفعل ذلك من أجل أنه لم يصل إلى الله.. وهذا مكان الضعفاء[٩] ولو كان ستر حال الولاية فضلا أو ميزة لكان لساتر حاله عن الناس فضل على الصديق والفاروق وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الأولياء ومن بعده الصديق والفاروق ولم يكن حالهم غامضا ولا مستورا عن الناس بل كل من عرفهم أو شاهد أحوا لهم شهد لهم بالولاية.

---

(٩) المرجع السابق: ١٦٠، ٣٦٤.

خاتم الأولياء:

لا نجد هذا المصطلح عند أحد من الصوفية قبل الترمذى الذى يشرح نظريته فى الولاية فى ضوء نظريته فى الحقيقة المحمدية وأنها كانت مقارنة لها فى البدء وكانت أولا معها فى المشيئة وفى العلم والمقادير وكانت أولا فى مكانتها أينما كانت وعقد مقارنة بينها وبين النبوة ليبين منزلتها من النبوة.

فكما النبى إماما وشفيعا للأنبياء كان خاتم الأولياء إماما وشفيعا للأولياء وسيدا فيهم فهو من الأنبياء قريب منهم ويكاد يلحقهم وقد أنفرد هذا الولى بمرتبة لا يدانيه فيها أحد فهو يحتل أعلى منازل الأولياء وقد أحتل هذه المرتبة لينفرد بوحدانيته ومناجاته كفاحا فى مجالس القرب من الله ومقامه دائما على خزائن المنن الإلهية ومتناولة من خزائن الأنبياء الذين يتناولون منها عطاءهم من العلم والمعرفة لأنه قد انكشف له الغطاء عن مقام الأنبياء ومراتبهم ووقف على خزائنهم فأخذ منها وهذا يذكرنا بما يقوله ابن عربى فيما بعد بأن الولى يأخذ علمه من حيث يأخذ الوحى الذى ينزل على قلب النبى فالنبى يأخذ علمه بواسطة والولى يأخذ من خزائن المنن الإلهية بلا واسطة، وهذا الولى لم يصل إلى تلك المترلة إلا بعد أن اهترى فى ذكر الله ولقد حدث

عنه الرسول بقوله : المفردون هم الذين اهتروا فى ذكر الله يأتون يوم القيامة خفافا يضع عنهم الذكر أثقالهم[١٠] ومن هنا كان للولى المحدث أن يبشره الله بحسن العاقبة أما ولى الحق فهو دون ذلك.

ولقد ساد هذا الولى الأولياء جميعا لأنه قد أعطاه الله ختم الولاية كما ساد محمدا الأنبياء جميعا بما أعطاه الله من ختم النبوة فبالختم تقدم الأولياء وصار حجة عليهم والأنبياء قبل محمد لم يعطوا هذا الختم ولذلك لم تخل حظوظهم من بعض هنات النفس ومشاركتها أما محمد فقد أعطيت نبوته الختم من الله فصار كالعهد المختوم المؤثق الذى لا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص منه.

وكذلك الحال بالنسبة للولى الخاتم حيث يسير الله به على طريق محمد مؤمنا بنبوته ملتزما بشريعته مختوما بختم الله، وبهذا صار حجة على جميع الأولياء لأنه قد أتى بجميع الولاية صدقا، فلم يجعل للنفس فيها نصيبا ولا تلبيسا[١١] وهذا الختم كان منة من الله على هذا الولى فى عالم الغيب لتقر به عين محمد صلى الله عليه وسلم حيث كان الخاتم للأنبياء وكان فى أمته الخاتم للأولياء ولواء الولاية بيه يوم القيامة والأولياء جميعا محتاجون إليه فى الشفاعة كحاجة الأنبياء إلى محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن المهم هنا أن نشير إلى مسألة لها خطرها فيما يتصل بخاتم الأولياء عند الترمذى فلقد سئل : هل يجوز أن يكون فى آخر هذا الزمان من يوازى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما؟ فأجاب الترمذى: أما فى الأعمال فلا وأما فى الدرجات فلا مانع من ذلك ويعلل رأيه هذا بأن الدرجات وسائل القلوب فكأن قلوب هؤلاء الأولياء كانت أقرب بوسائلها من أبى بكر وعمر وفى سبيل تأكيد هذه الفكرة الغريبة يتأول قول الرسول فى إيمان أبى بكر بأنه لو وضع فى كفه وإيمان الأمة فى كفة لرجحت كفة أبي بكر يقول بأن هذا وزن الأعمال لا وزن الدرجات وما فى القلوب ويجعل الجنة للأعمال والدرجات فيها للقلوب وما فيها ويحاول أن يقرب هذه الفكرة من عقل المسلم فيقرر أن

---

(١٠) نفس المرجع: ٣٦٨-٣٦٩

(١١) المرجع السابق: ٤٢٢-٤٢٣.

الأنبياء تقدموا الخلق بالنبوة وليس بالعمل وكذلك الأولياء تقدموا غيرهم بالولاية لا بالعمل وهذا الرأى يناقض النصوص الصحيحة عن الرسول فى فضل أبى ~ وعمر والخلفاء الأربعة. وما يدعيه الترمذى من التفرقة بين العمل والدرجات لا يؤديه نص صحيح من كتاب ولا سنة ومعلوم أن العمل ترجمان عما فى القلب ولا فصل بينهما من وجهة النظر الإسلامية الخالصة لأن العمل هو مصداق ما فى القلب ولقد لخص الرسول هذه القضية فى قوله : "ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل" ولقد سبق أن قلنا أن الرسول قد نص صراحة على فضل أبى بكر وعمر والصحابة أجمعين وصرح بأن "ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشى ء وقر فى قلبه" ولا يتردد الترمذى بالتصريح فى أكثر من موضع فى كتابه بأنه غير مدفوع أن يكون فى هذه الأمة من هو أفضل من أبى بكر فى يقينه ووصول قلبه إلى اللهولا شك أن فى ذلك اجتراء على مقام الصحبة وهو مناقض لأحاديث الرسول الصحيحة فى فضل صحابته وما يجنح الترمذى فى ذلك من أقوال يرويها على أهل الكتاب وغيرهم لا أصل لها فى الأحاديث الصحيحة بل هى فى معظمها من فعل الوضاعين للآثار وما أكثرهم فى هذا الميدان.

ولما كانت الولاية أمرا إلهيا من حيث طبيعتها ومصدرها فإن الترمذى يرفض أن يخضعها لاعتبار العقل أو مقاييس الفكر البشرى ومن هنا فلا مجال للاعتراض عليه بمبدأ العقل أو حكم المنطق والبرهان لأن هذه مقاييس لها وجاهتها فى ميدانها البشرى أما فى مجال الولاية فهى أعز من أن تنال أو تخضع لاعتبارات عقلية.